القول الفصل

بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون

بقلم

أفقر عباد الله الى ربه الكريم

مصطفى صبري

شيخ الاسلام للدولة العثمانية سابقاً

القاهرة ١٣٦١

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

كلمة المؤلف

ما زلت منذ بضع سنين مشتغلا بتأليف كتاب درست فيه جلّ مايحتاج المسلم المتعلم الى معرفتـه لوقاية عقيدته الدينية من الزيغ العصرى الذى أزداد مع ازدياد أيام حياتى بمصر وقوفا عليه ، وعلى أنه مرض من الامراض السرية المزمنة فى كثير من المتعلمين، لا المثقفين الثقافة الغربية فقط، بل ان لهذا المرض عدوى الى بعض الموظفين بوظائف علماء الدين أيضا ، حتى انى وجدت فى نفس بعض المعنونين بالمصلح فساداً، والقائمين للدفاع عن الدين إلحاداً ، ربما لم يطّلع غـيرى عليهما ، أو لم يتشجع لمناقشة أصحابهما الحساب ، وحتى ان موجة الشك تطاولت فى قلوبهم الى مسألة وجود الله، فلو اقترحتَ عليهـم اثباتها بعد تنصـل العلم الحديث عنها واكتفائه بالتشكيك فيها لوجدتَهـم مذبذبين بين العجز عن اثباتها بالعلم القديم وبين عدم الاعتداد بأدلة ذلك العلم . وقد ذكرت فى مقدمة الـكتاب الطويلة جـداً وثائق من نشرات الصحف والمجلات لتلك الحالة السيئة ، لئلا يكون عيبها منى عليهم رجما بالغيب

فـكتبت كتابى غـير آل جهداً فى مداواة ذلك المرض الذى كاد يكون عاما ، وفى القضاء على أسس ذلك الزيغ التى زعم المتمسكون بها منذ أزمنـة من المـاضى القريب انها أسس علمية بحقيقة معنى الـكلمة، وربما غروا جيلا من الناس بدعواهم هذه وقد سميت الـكتاب : « موقف العقل والعـلم والعالَم من رب العالمين ورسـله »

ولـكون الـكتاب يكوّن ثلاثة مجلدات قررت ارجاء نشره الى انفراج أزمة الورق ثم حـدث فى الأيام الأخـيرة ان الشيخ شلتوت الذى عرفتـه من قبل بما أنـكر وجود الشـيطان كما يصوره كتاب الله ، ورددته عليه فى كتابى المار الذكر ، نشر

مقالة فى مجلة « الرسالة » عدد ٤٦٢ ينكر فيها رفع عيسى عليه السلام الى السماء حيا، ونزوله الى الارض فى آخر الزمان، فكتبت رداً عليه أيضا وأرسلت هذا الرد الى مجلة الثقافة. ولما مكث الرد فى ادارة المجلة زهاء شهر واطلعت على أن أصحابها لا يريدون نشره، واطلعت مع ذلك على رغبة كثير من المسلمين فى أن أقول قولى بهذا الصدد كما قال بعض علماء الدين الغيورين جزاهم الله عن المسلمين خيراً ، ونشرت مقالاتهم فى بعض المجلات ، أخذت من كتابى الباب الثالث الخاص بدرس مسائل النبوة والمعجزة والنشأة الآخرة، وبادرت الى نشره على شكل كتاب صغير قبل نشر الكتاب كله ، ليكون نموذجاً له ، وجواباً عاجلا فى المسألة الموضوعة موضع البحث، وليكون الذين ضنوا بالجوّ أن يتسع لمقالتى ، مجابهين بكتاب بدل مقالة ، وجعلت اسم هذا الكتاب :

« القول الفصل »

« بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون »

والله تعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، انه سميع قريب مجيب

بسم الله الرحمن الرحيم

الم ذلك الكتابُ لاريبَ فيهِ، هدًى للمتقين، الذين يؤمنونَ بالغيبِ ويُقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون ، والذينَ يُؤمنونَ بما أُنزل اليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من اصطفاهم برسالته الى الناس ، وجعل لهم من الآيات البينات الخارقة لسنته فى الكون علامات يمتازون بها على الذين أرسلوا اليهم ، أخص بالذكر منهم رسولنا وسيدنا محمداً ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

وبعد . فما لايخفى على ذوى الأعين الساهرة، بعد أن سادت المادة فى الغرب، وأخذ الشرق يهتدى بهدى الغرب ، ما طرأ على القلوب الضعيفة من انكار المعقولات والمغيبات التى فى رأسها رب المشرقين ورب المغربين ، حتى ان الاستاذ فريد وجدى سبق له فى مقالة من مقالاته المنشورة فى « مجلة الازهر » (الجزء الخامس من المجلد الثامن) أن جعل الايمان بالغيب الذى هو أول صفة وصف الله بها عباده المفلحين ، مقابلا للايمان بالواقع فنزل الايمان بالغيب بهذه المقابلة منزلة الايمان بغير الواقع

وحتى ان هذا الاستاذ قال فى أثناء مناقشة جرت بينى وبينه ، ونشرت فى ضمن مقالات من الطرفين على صفحات جريدة « الاهرام » قولا ذكرته فى مقدمة كتابى المار الذكر بين أسباب تأليفه، وكان ذلك قبيل تولى الاستاذ رئاسة تحرير مجلة الازهر أعنى أيام كان حراً عن الوظيفة الرسمية الأزهرية

وهذا نص قول الاستاذ أعيده هنا بنصه :

« ... فى تلك الأثناء ولد العلم الحديث، وما زال يجادل القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها، فدالت الدولة اليه فى الأرض ، فنظر نظرة فى الأديان، وسرى عليه أسلوبه، فقذف بها جملة الى عالَم الميتولوجيا (الاساطير) ثم أخذ يبحث عن اشتقاق بعضها عن بعض، واتصال أساطيرها بعضها ببعض

فجعل من ذلك مجموعةً تقرأ لالتقدّس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الانسان نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده، غير مدّخر فى سبيلها روحه وماله

« وقد اتصل الشرق الاسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا، ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لانه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله، ولكنه استبطن الالحاد وتمسك به، متيقناً انه مصير اخوانه كافة متى وصلوا الى درجته العلمية

« وقد نبغ فى البلاد الاسلامية كتّاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دساً فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم، تفاديا من أن يقطّعوا أو ينفوا من الأرض »

ثم أدخل الاستاذ نفسه فى الذين أسلاهم الاتصال بعلوم الغرب عن دينهم ثم أخرجه من بينهم. ولا حاجة لتنبيه القارئ النبيه الى أن الدس الذى ذكره الاستاذ لنوابغ الشرق الاسلامى المستبطنين للالحاد بعد ارتشافهم من مناهل العلوم الغربية، له أنواع وأساليب لاتحد ولا تحصى، حتى ان منها الادخال والاخراج اللذين خصهما لنفسه كما يظهر من الاطلاع على صورتهما المذكورة فى مقدمة الكتاب. ومن ذلك الوقت الطويل الذى لفتنى افشاء الاستاذ فيه عن كتّاب المسلمين المستبطنين للالحاد ،

واستبطنتُ أنا أمرهـم ، لقيت من دسائسهم ما يجعل أسباب التأليف التى ذكرتها وأطلت الكلام فى ذكرها فى مقدمة الكتاب ، محصولَ الاستقراء الناقص ، حتى استدركت مافاتنى فى المقدمة من تلك الاسباب، وذكرته فى أمكنة مختلفة من صلب الكتاب

وأبرز مميزات هؤلاء الكتّاب والعلماء المتفقين معهم انهم ينكرون المعجزات الكونية، ويعتبرونها من المستحيلات، وقد سبق فى مقدمة الكتاب كيف أنكرها الاستاذ فريد وجدى، وأنكرمعها البعث بعد الموت، وردّ جميع آيات القرآن الواردة فى كل من الموضوعين الى المتشابهات التى لاتفهم معانيها

وبعضهم يخص انكاره بمعجزات نبينا من ذلك القبيل، ويعتبر تجرده منها ميزة له على سائر الانبياء، حتى ان فضيلة الاستاذ المراغى قال فيما كتبه تقريظاً على كتاب « حياة محمد » الذى أخلاه مؤلفه عن المعجزات ، والتقريظ منشور فى صدر الكتاب: « وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحِنّا بما تعيَى العقولُ به حرصا علينا فلم نَرتَب ولم نَهِم

ومن مميزاتهم البارزة فى الأيام الأخيرة أنك تراهم يسعون أن يقيموا مقام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبقرية يجعلونها موضع عناياتهم، ويكتبون عنها بدلا من نبوته ، تفضيلا لمناقبه التى يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ومن لايدين له برسالة ، على التى ينفرد بتعظيمها المسلمون

وقد أفصح أحد دعاة العبقرية ـ أعنى به الدكتور زكى مبارك ـ عما أضمره غيره، فقال فى مقالة منشورة فى العدد الخاص من مجلة « الرسالة » بأول العام الهجرى ١٣٥٨:

« سيأتى يوم ـ قريب أو بعيد ـ يثور فيه الناس على الامور الغيبية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد » ومعناه أن نبوته غير مأمون أن يثار عليها حتى من الذين يدينون بها لكونها من الامور الغيبية . فينجلى من هذا ان تخصيصهم

العبقرية بالبحث والدرس ناشئ من عدم كون نبوته صلى الله عليه وسلم متيقنة عندهم تيقن عبقريته ، والا فما ذا هو دافعهم الى هذا التخصيص الرامى الى إنساء نبوته فى ترويج عبقريته انلم تكن العبقرية أفضل وأسمى من النبوة وأسلم من الشبهة ؟. أليس غريباً أن يقوم كاتب من المسلمين فيكتب حياة سيدنا محمد كما يكتبها كاتب أجنبى عن الاسلام منصف مقدر لعظمة محمد نافذ النظر فى اعماق عظمته ، ولكنه على كل حال غير تام التقدير حيث لايجعل نبوته التى هى معدن تلك العظمة الجامعة للعظمات ، فى رأس مايعنى به من حياته ، أو غير تام الحظ حيث لاتدركه الهداية الالهية للايمان به على انه نبى من أنبياء الله

فان قيل ـ اعتراضاً علىّ ـ انّ كاتبنا الساعى لاثبات عبقرية نبينا لاينفى نبوته ، أقول: وهذا عبقرية الكاتب [1] . لكن واجب القارئ اليقظ أن يبحث عن سبب هذا الانحراف فى اختيار الموضوع ، ويقول فى نفسه ما ذا هو منشأ التهالك من كتّابنا العبقريين على هذا النوع من مواضيع الكتابة عنه صلى الله عليه وسلم فى زمان ضعف فيه الايمان بالامور الغيبية ، حتى لم يُستبعد وقوع الثورة عليها من الناس ؟ أليس فيه تأييد لذلك الضعف ، واشتغال بملافاة ما كاد ينسى وينكر من نواحى عظمته بما لايقبل النسيان والانكار منها ؟ مع أن فى هذه الملافاة أيضا تأكيداً لإنساء ماأصبح على وشك النسيان

---

(١) فهو يمثل دور المعنى بعبقريته فقط من دون تصريح بنفى نبوته ، وقد كان آخر من زملائه نفى معجزاته غير القرآن ، فكأنه أبقى القرآن دليلا لنبوته ، على أنه سيأتى كلام منا على هذا الإبقاء ، وهناك زميل ثالث يتوقع الثورة على الأمور الغيبية التى تتدرج فيها النبوة والمعجزة مطلقاً . أى يثور عليها حالا فى هذا الأسلوب. فبالنظر الى مجموع هذه الأقوال والأدوار التى يكمل بعضها بعضاً تنهار النبوة وتبقى العبقرية ، ويتحقق قول المستشرق مؤلف « الأبطال » : « محمد البطل فى صورة النبى ! » ذلك القول الذى لا يستبعد كونه ملهماً لكتاب العبقرية من تلاميذ المستشرقين فى الشرق ، ما يكتبون .

وهذه النقاط الدقيقة اللائحة ببالى إن كان أناس من القراء ينكرون خطورها بأذهان كتّاب العبقرية كان ذلك انكاراً منهم لعبقرية الكاتبين أنفسهم، واساءة الظن بهم أكثر مما يرون منها فى ظنى ؛ فان كان مسلمو زماننا لاخوف على دينهم من تشكيك المشككين بالنسبة الى كل زمان مضى فى الاسلام ، وكان الكاتبون العصريون النوابغ أجدر الناس بالاعتماد على صحة عقائدهم وسلامة نواياهم حتى بعد افشاء الاستاذ فريد وجدى عن سرائرهم ومراميهم فى كتاباتهم ، فأرضى أن أكون أنا الملوم بسوء الظن، وأختار لنفسى هذا الموقف على مايختار هؤلاء الكتاب للمسلمين من موقف الحمق !

ثم ان الكتابة والتأليف لا بد أن يتضمن دعوة القراء الى الاقتناع بشىء ، فان كان فى دعوة الناس الى الايمان بعبقرية سيدنا محمد كسب القراء من غير المسلمين فهذا الكسب الحاصل من الاعتناء بعبقريته المؤدى الى صرف الأذهان عن نبوته لايعوّض خسر المسلمين لاسيما من غير العرب ، فما هى الفائدة التى تعود اليهم من عبقرية محمد الذى لم يبق رواج نبوته ؟ بل وما فائدة غير المسلمين من عبقريته غير أن يروا كتّاب المسلمين حولوا أقلامهم الى وجهتها مستشعرين بعدم رغبة الناس اليوم فى حديث نبوته، بل حديث نبوة أى نبى كان ، لكونها من الامور الغيبية التى قلما يؤمن بها الجيل الحاضر من الناس ؟. فالمسألة اذن جعل محمد صلى الله عليه وسلم نبياً عصريا ان زالت زعامته للمسلمين كافة فلا يزال زعيما للعرب . ولغير العرب أن يحتفظوا باتباع خطته مع هذا التحول فى موقفه ، باعتبار أنها خطة معقولة . وكذا الحال فى مواقف سائر الانبياء صلوات الله عليهم : فللمنتمين الى دينهم أن يعتبروهم عباقرة زمانهم فى صور الانبياء ، وليس أدل على عبقريتهم من اقناعهم الناس برهة من الزمان بنبواتهم . ولا يقال بصدد تبرئة الكتّاب الذين أتعقبهم وأتهمهم بانكار النبوة وتحويلها الى العبقرية لاسيما فى سيدنا محمد ﷺ ، انهم لا ينكرون النبوة

وانما يجمعون اليها العبقرية التى لاشك فى أنها صفة عالية لايجىء منها أى ضرر وأى نقص لنبوة النبى ، بل يكون اتصاف النبى بالعبقرية زيادة فى شرفه ومنقبته ـ لانى أقول أولا ، واستعيذ بالله أن أكون من المفترين عليهم بما هم بريئون منه : علامة انكار النبوة فيهم القاطعةُ فى دلالتها انكارهم المعجزات ، وهما ـ أى المعجزة والنبوة سيان فى كونهما من الامور الغيبية الخارقة لسنن الكون التى ينتهى اليها انكار ماينكرونه فى هذه المسائل . نعم ربما تعترف تلك الطائفة بالنبوة لا بمعنى النبوة التى تعد من الامور الغيبية ،والتى يعتقدها المسلمون والمليون جميعا ، ولا عبرة بهذا الاعتراف طبعا ؛ وربما يعترفون بالمعجزات أيضا لكن لابمعنى المعجزات الخارقة لسنن الكون حقيقة ، وانما هى أمور لايصح عدها من المعجزات اعتبروها معجزات ، كما فعل الأستاذ فريد وجدى عند ما كتب الامور الخارقة للنواميس فى وقعة بدر ، وذلك فى سلسلة مقالات منشورة فى مجلة الأزهر بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة »

فهو لم يلتفت الى ما بين الخوارق الحقيقية الواقعة فى بدر وبين العنوان القائل « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » من التناقض حيث لايتفق الاعتراف بالامور الخارقة للنواميس الطبيعية مع العلم والفلسفة المعروفتين بين الكتاب العصريين. لكن الأستاذ يروغ بين انكار الخوارق وبين الاعتراف بها فى رئاسة مجلة الأزهر، وهو ثابت القدم فى انكار الخوارق الحقيقية التى لابد أن تكون المعجزة الحقيقية منها، كما لابد من كون علامة النبوة الحقيقية هى المعجزة الحقيقية الخارقة المعدودة من الامور الغيبية

وليس أدل على كون انكار المعجزات الخارقة التى تلازم النبوة ، ملازما لانكار النبوة ، من أن الدكتور شبلى شميل ناشر فكرة الالحاد فى البلاد العربية بحماسة

وصراحة ، يسمى الايمان بالأديان ايماناً بالمعجزة [١] . وثانيا انهم لايكتبون عن عبقرية سيدنا محمد كضميمة الى منصب نبوته ، بل مستقلة عنه ومغنية ، لاسيما عن المعجزة التى تلازم النبوة، وربما يقارنون بين النبوة والعبقرية مدعين للعبقرية الاعجاز اللازم للنبوة . وهذا أوضح دليل على كونهم مجتهدين فى اهمال النبوة وترويج العبقرية بدلا منها ، انظر الى قول الأستاذ فريد وجدى فيما كتبه فى الجزء السابع من المجلد الحادى عشر من « مجلة الأزهر » بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » :

« تمتاز العصور النبوية (يعنى عصور الأنبياء) بالخوارق للنواميس الطبيعية فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الاذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى صاحبت الدعوى فى جميع أدوارها وكانت أعظم شأنا وأجل أثراً من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ماتناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما اليها مما لايمكن اثباته بدليل محسوس، ومما يتأتى توجيهه الى غير مافهم منه. ولكنى أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد ﷺ فى أقل من ربع قرن ، وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرون العديدة والآماد الطويلة

« وقد لاحظ قراؤنا اننا نحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة على أن لا نسرف فى كل ناحية الى ناحية الاعجاز مادام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشىء من التكلف ، مسايرة لمذهب المبالغين فى التثبت والمحافظة على الدستور العلمى ثقة منا بان بحثا لاتحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل

---

(١) راجع المقدمة التى كتبها الرجل لتعريب كتاب بوخنر فى شرح مذهب داروين. والتعريب طبع مع المقدمة فى مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية سنة ١٨٨٤

وتحليلها لا يمكن أن يؤدى الى ما قصد منه من الخدمة العامة »

ولنا تعليقات على هذا الكلام فى مقدمة الكتاب (الكبير) خشينا الاطالة فى نقلها هنا مهما كانت هامة، وحسبنا فهم القارئ من قول الأستاذ أنه يستخرج من غير المعجزات معجزات ويرد المعجزات الحقيقية المبنية على أسباب غيبية غير طبيعية والتى هى معجزات النبوة الحقيقية التى هى أيضا من الأمور الغيبية غير الطبيعية، الى أساطير الأديان ، كما حمل الآيات الواردة فى القرآن عن معجزات الأنبياء الى المتشابهات غير المفهومة، لما جرى بينى وبينه النقاش قبل بضع سنوات، كل ذلك لانكار المعجزات الخارقة للنواميس الذى يلزمه انكار النبوة أيضا لسببين : أولهما كون المعجزة علامة النبوة فمن ينكرها فلا بد أن ينكر النبوة ، وثانيهما أن منشأ انكار المعجزة كونها من الامور الغيبية مع أن النبوة نفسها التى هى اتصال خاص بالله من الامور الغيبية أيضا

بقى ان واجب الانصاف الذى لا يؤدى إلا بايتاء كل ذى حق حقه ، يقضى بأن لا يكون درسى لمسألة العبقرية خلوا عن تقدير كتاب « عبقرية محمد » للاستاذ العقاد . فقد أصدرت حكمى ضده قبل مطالعته بمجرد سماع اسمه ورؤية بعض إعلان عنه فى الصحف والمجلات، ثم لما قرأته أعجبت به، لاسيما ببعض مباحثه، وان لم أرجع عن حكمى الصادر نظراً الى كون مؤلفه أيضا من دعاة العبقرية ومروجيها بدل النبوة ومعجزاتها . ومع هذا فهو لم يتوقع الثورة على النبوة كما توقعها الدكتور زكى مبارك ؛ ولم يصادم البداهة فى سبيل انكار معجزات الأنبياء ملغيا جميع الآيات الواردة بشأنها فى كتاب الله ورادا لها الى المتشابهات التى لا يحصل القارئ منها على معنى مفهوم ، كما صادم الاستاذ فريد وجدى ، ولم يعتد فى سبيل انكار معجزات نبينا الكونية على كتب الحديث ساعيا لتشكيك الأذهان فى صحة كل ما رواه أئمة المسلمين عنه ﷺ من الأقوال والأفعال الى أن ألغى ركن السنة من بين حجج الاسلام كما فعل هيكل باشا كل ذلك فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « حياة محمد » ،

ولم يحرف الكلم عن مواضعه فى تأويل آيات القرآن الناطقة بالخوارق كرفع عيسى عليه السلام الى السماء، ولم يهن مقام القرآن بادعاء مجاراته لعقيدة العرب الجاهليين فى تصوير الشيطان ، كما حرف وأهان الشيخ شلتوت فراراً عن الايمان بالغيب !!

وفضلا عن عدم تورط الاستاذ العقاد فى أمثال هذه السخافات التى تورط فيها غيره من دعاة العبقرية ومنكرى المعجزات ، فانه أحسن فى الدفاع عن سيدنا محمد رداً على اتهام من يتهمه من الغربيين بالاستسلام للذات حسه، وأحسن فى الدفاع عن الاسلام فى مسألة تعدد الزوجات ، مع انه لم يسبق وعدمنه فى الدفاع عن الاسلام عند تعريف كتابه . وقدأصاب فضيلة الاستاذ المراغى فى أمره باشتراء جملة من كتاب العقاد لتوزيعها فى مدارس الأزهر ، أكثر من اصابته فى تقريظ كتاب هيكل باشا .

الحاصل انى وجدت الاستاذ العقاد أمثل دعاة العبقرية فى اتزان الكلم. أما كون قلمه أقوى فانى أعرفه قبل كتابه هذا . ثم إنى بعد كل هذا الاعتراف بحق الاستاذ أراه مخطئا كزملائه فى انكار المعجزات الذى يشهدبه قوله فى ص ٢٨ وعلامات الضعف بادية فيه رغم حسنه وطلاوته :

«قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه ، والجزيرة مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة ؟ وما ذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟ وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق ؟ علامات الرسالة الصادقة، وهى عقيدة تحتاج اليها الأمة، وهى أسباب تتمهد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أدائها ؟

« فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟، واذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض مانقص منها ؟ »

وقوله فى ص ٤٨ : « انما نجحت دعوة الاسلام لانها دعوة طلبتها الدنيا ،

ومهدت لها الحوادث ، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته ، فلا حاجة بنا الى خارقة ينكرها العقل » الخ

والاستاذ يعرف كما أعرف أنا أن انكار المعجزات الخارقة المبنية على أسباب غيبية يكون من منكريها لانكار النبوة الحقيقية التى هى من الامور الغيبية أيضا ، وان لم يعرف أن تلك المعجزات غير مستحيلة عند العقل ، وسيعرفه أيضا بعد مطالعة كتابى . وانى لاأطيل الكلام مع الاستاذ كما أطلته مع غيره ، وانما أقول له : ان القرآن الفاصل بين كل حق وباطل يفصل بيننا فى هذه المسألة أيضا . وطريق فصله هكذا :

نحن نرى الاستاذ العقاد القائل بكون نبوة سيدنا محمد وليدة تهيؤ الزمان والمكان الممتد من جزيرة العرب الى كل الدنيا ، وليدة التهيؤ العام المتولد من الحاجة العامة اليها ، وكانت حاجة طبيعية صادفت شخص محمد المستعد الاضطلاع بالامانة بصفاته العالية الظاهر من كونه عبقريا فى الدعوة ، عبقريا فى العسكرية ، عبقريا فى السياسة ، عبقريا فى الادارة ، عبقريا فى البلاغة ، عبقريا فى الصداقة ، عبقريا فى الرئاسة ، عبقريا فى الزوجية ، عبقريا فى الأبوة ، عبقريا فى السيادة ، عبقريا فى العبادة ، عبقريا فى الرجولة ، عبقريا فى كل مايلزم لنجاحه فى الدعوة ، من غير أن يخالط ذلك التهيؤ والحاجة العامة العالميتين شىء من الخوارق واتصال بعالم الغيب — نراه ينسى القرآن أو يتناساه عمداً بين أسباب نجاح الدعوة الاسلامية مع كونه أعظم الأسباب الذى لايعدله بل لايدانيه سبب آخر ، ومع كون الأستاذ يستدل بما يستدل به من الأسباب والعلامات على نبوة سيدنا محمد ، بعد تحقق نجاح الدعوة بانتشار الاسلام ومضى عهد الداعى مقرونا بالنصر والتوفيق . وهذه الحالة انما تكون علامة على نبوة سيدنا محمد بعد مضى عهد الدعوة متأخرة عن أوانها بكثير ، فماذا كان العامل الأول فى الدلالة على صدق صاحب الدعوة عند أول المقابلين بها السابقين فى قبولها ، والذين هم رضى الله عنهم أسس صرح النجاح ؟ ، لا شك فى أنه القرآن !

ثم إنا نرى الاستاذ الذى نسى هذه العلامة الأولى والكبرى للنبوَّة لم ينس أن يستمد فى كتابه على حسب مناسبات الأبحاث بآيات من القرآن ، وكان ذلك من أسباب نجاح كتابه فى التأثير على القلوب ، فهل يمكن أن لايكون للقرآن الذى أثَّر حتى فى نجاح كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد تأثير فى نجاح دعوة محمد ﷺ ؟ لايمكن الأستاذ أن ينكر ذلك، ولا أن ينكر تفوق القرآن على جميع أسباب النجاح التى عددها من التهيؤ العام والحاجة العامة فى العالَم ،ومن اجتماع أنواع العبقرية فى شخص الداعى

فما موقف القرآن اذن من محمد العبقرى الذى كانت دعوته ـ على رأى الأستاذ ـ فى غنى عن المخالطة بشىء من الخوارق الغيبية ليتسنى لها النجاح ؟، وكان متوقعا من الأستاذ أن يعين موقف القرآن من محمد العبقرى فى مبحث « البليغ » من كتابه ليكون مؤديا لحق البحث ، فلم يفعل . فان كان قراء كتابه المعجبون به كما أعجبت أنا لم يسألوه عن موقف القرآن من محمد البليغ العبقرى فى بلاغته، فانى سائله عن ذلك، وسائله : هل هو كلام الله أم كلام محمد نفسه ؟

فان كان كلام الله المنزل بنصه على محمد بواسطة الملك فهو يتناقض مع المفروض آنفا فى نبوة محمد من العبقرية المستغنية عن الخوارق الغيبية ، لكونه أكبر خارقة وأكبر اتصال منه بعالم الغيب

وان لم يكن القرآن كلام الله، بل كلام محمد نفسه عزاه الى الله كما أشار اليه الدكتور زكى مبارك من دعاة العبقرية فى قوله : « ان محمدا حرم نفسه الشهرة باجادة البيان وبفضل الكتاب الذى بلغه عاش البيان » وسيجىء نقله مع أقواله الأخرى .. ان كان القرآن عند الأستاذ العقاد صاحب كتاب « عبقرية محمد » الساعى لتجريده عن الخوارق، كما هو عند الدكتور زكى مبارك، كان محمد كاذبا فى نسبة القرآن الى الله على الرغم من قول القرآن : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الىّ ولم

يوحى اليه شيء » وكان هذا الكذب أكبر مناف للنبوة والعبقرية معا

فان تساهل العبقريون وذهبوا فيما بينهم الى عدم التنافى بين العبقرية والكذب غير مصارحين به غير أمثالهم فماذا يقولون فى تحدى القرآن الانس والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثله ؟ مع أنه لا يتصور صدور التحدى عن عاقل من البشر على أن يأتوا بكلام مثل كلامه ، فهل يمكن عند دعاة العبقرية أن يكون محمد العبقرى مجنونا إن أمكن عندهم أن يكون كاذبا ؟ ، وهل يجوز عندهم ائتلاف العبقرية بالجنون أيضا كما جاز ائتلافها بالكذب ؟

ونحن نحاشى محمداً ﷺ من كل ذلك

أقول للكتاب العصريين بعد هذا السؤال الواضح : ان كنتم تؤمنون برسالة محمد من الله بمعناها المعروف عند المؤمنين بالأنبياء فاصدقوا فى إيمانكم ، ولا تكذّب قلوبكم أقوالكم بل ولا تكذّب أقوالكم بعضها بعضا ، فليس لكم أن تقيسوا عبقرية محمد على عبقريتكم التى تسهّل الكذب فى أعينكم ، فأين هذا الذى تحدثون به أنفسكم من أن يكذب محمد الأمين على ربه الذى يقول (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين)

وقد يُنطق الله كتّابنا العصريين بالحق فيقول مؤلف « حياة محمد » — ونعم مايقول — عند الكلام على الأقوال المختلفة فى سبب نزول قوله تعالى (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا) ص ١٨٠ :

« ومهما تكن الحقيقة الثابتة التى لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع التى نزلت الآيات فيها ، فانها تصور ناحية من نواحى العظمة النفسية لمحمد كما تصور

صدق اخلاصه تصويراً قويا . وهذه الناحية تصورها كذلك هذه الآيات التى تقلنا من سورة « عبس » ويشهد بها تاريخ محمد كله . تلك انه كان يصارح الناس بأنه بشر مثلهم يوحى ربه اليه لهدايتهم، وأنه ـ وهو بشر مثلهم ـ معرض للخطأ لولا عصمة الله إياه . فهو قد أخطأ حين عبس لابن أم مكتوم وتولى عنه ، وهو قد كاد يخطئ فيما نزلت عليه آية الاسراء فى شأنه ، وكاد يفتن عن الذى أوحى اليه ليفترى غيره . فاذا نزل عليه الوحى ينبهه إلى ماصنع فى أمر الأعمى ، وفى أمر هذه الفتنة التى كادت قريش تدفعه اليها ، صدق فى تبليغ الوحى الى الناس صدقه فى تبليغ رسالات ربه، ولم يقف حائل من أنفة أو كبرياء، ولا وقف اعتبار انسانى، حتى مما يسيغ الفضلاء ، دون إعلان هذا الحق فى أمر نفسه . فالحق اذاً ـ والحق وحده ـ كان رسالته . واذا كان احتمال أذى الغير فى سبيل مانؤمن به بعض ماتطيق النفوس الكبيرة ، فان اقرار العظيم بأنه كاد يفتن ليس مما ألف الناس صدوره حتى من العظماء . انما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمور ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حسابا يسيرا . فهو شىء اذاً أكبر من العظمة، وأعظم من كل عظيم ذلك الذى يتيح للنفس هذا السمو على العظمة ، ويفوق كل عظيم هو النبوة التى تملى على الرسول صدق الاخلاص فى إبلاغ رسالة الحق جل شأنه »

والشاهد فيما نقلناه عن كتاب هيكل باشا وحبذاه هو الفقرة الأخيرة الناطقة بعظمة النبوة التى تسمو على العظمة . ونحن نضيف اليه قولنا : نعم ان النبوة هى الشىء الذى يسمو على العظمة وتقصر عن مداه العبقرية

وانظر عظمة النبوة المتجلية فى قوله تعالى : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) وقوله : (وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أوسلّما فى السماء

فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)

فهما أبلغ من الآيتين المذكورتين من قبل نقلا عن كتاب هيكل باشا فى الدلالة على عظمة محمد النبي ﷺ فى صدقه واخلاصه لكونهما يصارحان بتضوره فى عجزه عن الاتيان بآية تُخضع الناس لتصديق مدعاه عن نبوته التى لامدعى لنفسه غيرها يمتاز به على الذين أرسل اليهم

وللكلام عن موقفه ﷺ من الآيتين الأخيرتين اللتين ذكرناهما وأشباههما بقية نوردها فى محلها ان شاء الله

* * *

نعود الى ما كنا فيه : ومن مميزات الطائفة العصرية انهم لا يعولون على كتب الحديث وما فيها من الروايات المتعلقة بمعجزات نبينا . ولذا جاء كتاب «حياة محمد» خلواً عن المعجزات الكونية وأقرّه عليه فضيلة الأستاذ المراغى والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» . وللوصول الى هذه الغاية يطعن من يطعن منهم فى مكان كتب الحديث مطلقا من الثقة، ويُعنى من يعنى بعبقرية سيدنا محمد بدل نبوته، لكنهم متفقون فى هذه المرحلة من الدس على الاعتراف بأهمية القرآن وسمو مكانه، قائلين: انه المعجزة الوحيدة

وقولى لهؤلاء القائلين ـ وهم دعاة العبقرية ـ: ان القرآن ان كان معجزة، وكان أفضل وأعظم ماوصل الينا من محمد ﷺ فهو معجزة نبوته لامعجزة عبقريته، لان العبقرية لا معجزة لها ، وان الذين لجأوا اليها أرادوا أن يتخلصوا من المعجزات التى تدور مع النبوات

وأصل المسألة أن النبوة كالمعجزة فى كونها مخالفة للعلم الحديث الذى سبق قول الأستاذ فريد أن دالت اليه الدولة فى الأرض ، وفى كون الذين ينكرون المعجزات من الكتّاب ينكرون النبوات أيضا ، وان كانوا اليوم أجرأ على المصارحة بانكار

المعجزات بالنسبة الى انكار المعجزات . بل العلم الحديث الذى يؤمنون به والذى قذف بالأديان جملة الى عالم الأساطير، يمنعهم من أن يؤمنوا بالله الذى لم يثبت وجوده الى الآن ثبوتا علميا مبنيا على التجربة الحسية ، ولذا قال الأستاذ فرح انطون منشئ مجلة « الجامعة » فيما مضى عند مناقشة الشيخ محمد عبده (١)

« ان الدين هو الايمان بخالق غير منظور، وآخرة غير منظورة ، ومعجزة ووحى ونبوءة وبعث وحشر وسؤال وحساب وثواب وعذاب فى الجنة والنار ، وكلها غير محسوسة ولا معقولة . ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين فى كل ملة ينادون بابعاد العقل من الدين ». وكان هذا القول أيضا من الأسباب التى دفعتنى الى تأليف الكتاب المسمى : « موقف العقل والعلم والعالَم من رب العالمين ورسله » والذى هذا الكتاب الصغير جزء منه منشور قبله

أما الشيخ محمد عبده فلم يصل الىّ رده على مناظره بما يقنع قراء ذلك الوقت ومن بعدهم ، ولو كان أتى بجواب مقنع يشهد له بالغلبة على خصمه لما اجترأ الأستاذ فريد وجدى على أن يقول فيما كتبه رداً علىّ عند مناقشة مسألة المعجزات ، وذلك بعد المناقشة الجارية بين الشيخ المفتى والأستاذ المنشى بأكثر من عشرين سنة : « ان الشرق الاسلامى لما رأى دينه ماثلا فى عالم الأساطير التى قذفت فيه الأديان جملة بيد العلم الحديث الغربى لم ينبس بكلمة لانه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله؛ ولكنه استبطن الالحاد وتمسك به متيقنا انه مصير اخوانه كافة متى وصلوا الى درجته العلمية » (٢)

---

(١) والمناقشة منشورة فى باب « الردود » من كتاب « فلسفة ابن رشد » للاستاذ منشئ المجلة المذكورة

(٢) فى قول الأستاذ فريد وجدى هذا أعظم دليل على ان الشيخ محمد عبده لم يكسب القضية لحساب الاسلام، حتى ان الأستاذ لايعد دفاعه عنه أمام طعن خصمه فى الأديان عامة بلسان العلم الحديث المبنى على التجربة الحسية ، كلمة منبوسة . ومن هذا كنت جعلت كتابى هذا (الكبير) المار الذكر

وأما محاولات الأستاذ فريد نفسه اليوم أن يتكلم الفينة بعد الفينة ضد العلم الذى قذف بالأديان جملة ـ وفيها دين الشرق الاسلامى ـ الى عالم الأساطير، والذى جعل له الأستاذ الدولة فى الأرض ، وذلك بعد أن تولى الوظيفة الأزهرية، ومضى عليه زمان ظن أن الناس نسوا ما كتبه أولا من ان الأمر ـ أى أمر دفاع الشرق الاسلامى عن دينه ـ أكبر من أن يحاوله، وكان الأستاذ قد أقفل بهذا الكلام الطريق على نفسه وعلى غيره، فليس من الأمر فى كبير ولا صغير كما يظهر من مطالعة كتابنا (الكبير). ونحن ان تغاضينا هنا عن صعود الخطر من دولة العلم ـ الذى ركع الأستاذ لسلطانه أولا ثم لم يستطع أن يرفع رأسه ـ الى مسألة وجود الله، اكتفاء بما كتبنا عنها فى الباب الأول (من الكتاب الكبير) ولم نعترف فيما كتبناه من أول الأمر بأى سلطان من أى دولة. فنحن ان تغاضينا عن صعود الخطر الى مسألة وجود الله كفتنا الفتنة الناجمة فى مسألتى انكار المعجزة وإقامة العبقرية مقام النبوة ، شرا حيث تسبب هذه الفتنة انهيار عقيدة كون القرآن كلام الله وأحاديث سيدنا محمد أحاديث رسول الله ، ويلائمه كل الملاءمة إن المصريين من علماء الدين مثل الشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة وعضو هيأة كبار العلماء فضلا عن الدكاترة والأساتذة من الكتّاب مثل الدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب « حياة محمد » ، تراهم يستسهلون على أنفسهم المخالفة لمرويات كتب الحديث فيما لا يوافق أهواءهم طعنا فى ثبوت تلك الرويات عن رسول الله بحجة أن أهل النقد من علماء الحديث وجدوا فيها أحاديث موضوعة ، فيرتقى العصريون من غير علماء الحديث بهذه المرتبة من النقد الخاص لبعض الأحاديث ، الى الطعن فى جملتها باحتمال الكذب فى الاسناد حتى أصبحت السنة من بين الأدلة الشرعية ملغاة

استثنافا لتلك المناقشة الجارية فيما مضى بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون، فان لم يكن الأستاذ فرح أنطون موجوداً اليوم، فالأستاذ فريد وجدى وغيره من ورثة عقليته أحياء يرزقون